اجتهادات
العقل.. والدين

هل كان الاتجاه الغالب فى أوساط رواد التنوير الغربى فى القرن الثامن عشر متصالحًا مع الدين حقًا، كما أشرت فى الاجتهاد المنشور فى 23 مارس الماضى تحت عنوان العلمانية والمسيحية؟ سؤال مشروع أُثير فى سياق التفاعل مع ذلك الاجتهاد، ومع دراسة نُشرت فى موقع مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية فى أول أبريل الماضى تحت عنوان «العلمانية والأديان» رواد التنوير العربى بين العلمانية واللادينية.

فكرتُ فى كيفية توضيح فكرة التصالح بين التنوير الفلسفى والدين فى كلمات قليلة، واهتديتُ إلى اتخاذ إيمانويل كانط أبرز روَّاد هذا التنوير وأعمقهم مثالاً. فقد انطلق كانط من اقتناع بعدم قدرة العقل على معرفة ما وراء العالم الذى يعيش فيه الإنسان، ودعا إلى إبعاد العلم عما لا يستطيع سبر أغواره، لتحقيق أكبر فائدة ممكنة من استخدامه، لأنه لا يستطيع مثلاً معرفة ما الذى سيحدث بعد الموت، ولا يمكنه إجراء تجارب على الروح بخلاف الجسد.

وفضلاً عن إشارات تُعبر عن هذا المعنى فى عدد من أعماله الكبيرة، نجد فى كتابه المعنون الدين فى حدود العقل ما يُعبر عن التصالح بين العقل والإيمان الدينى. فقد لاحظ كانط، مثل آخرين، ما ترتب على سطوة الكنائس فى أوروبا، وما أدى إليه التعصب الدينى والمذهبى. كانت شرور هذا التعصب، وتلك السطوة، واضحة فى عدد من بلدان أوروبا، كما فى عموم القارة التى عانت ويلات الحروب المذهبية. وأدرك بناءً على ذلك،

أن المشكلة ليست فى الدين، بل فى الطريقة التى يُفهم بها، أى فى التزمت والتعصب والتطرف.

ووفق المنهج الذى يُميَّز فلسفة كانط، لا مجال إذن لتحميل الدين المسئولية عن شرور يرتكبها من يزعمون أنهم حاملو رايته والمتحدثون باسمه، عن طريق نشر تفسيرات ومفاهيم مغلوطة0 هذا هو ما دعا كانط إلى مقاومته لتحرير الدين من محتكريه.

وعندئذ أمكن الوصول إلى ما يمكن أن نعتبرها مصالحة تاريخية بين العقل والدين عبر عنها كانط ضمنًا بقوله: عندما تنتهى حدود العقل، تبدأ مساحة الإيمان الدينى، والعكس. فلا العقل يستطيع إدراك جوهر هذا الإيمان، ولا الإيمان يتعارض مع العقل.